المعتمد بن عباد
بين تنكر الزوجة وغدر الأصدقاء

محمد أمين أبو بكر*

يـــا أهـــل آنـــدلـــس لـــلـــه دركـــم
مـــاء وظـــل وأشـــجـــار وأنـــهـــار

هكذا كانت الأندلس ينبوعاً من ينابيع السحر والجمال فيها من ألوان الفتنة وصنوف الروعة ما تفتقر إليه كثير من بلاد العالم. تتعانق في رياضها أغصان الأشجار متمايلة بخفة ودلال مع نسمات الصباح والمساء تخبئ جبالها الخضراء في ثناياها وديانـاً زاخرة بالعجائب والغرائب وهضاباً ساحرة مطرزة باجمل الورود وأعطر الأزهار وأنهاراً تحتضن أغصان الأشجار المتدلية إليها وتداعبها في غرام لا ينقطع بينما تصافح أشعة الشمس الذهبية المتسللة من خلال أغصان الأشجار ماءها اللجيني في صورة نادرة على هذه الأرض.

وما أجمل قول الشاعر الأندلسي ابن خفاجة حين قال:

لـلـه نـهـر سـال فـي بـطـحـاء
أشـهـى ورودا مـن لـمـى الحـسـنـاء
مـتـعـطـف مـثـل الـسـوار كـأنـه
والـزهـر يـكـنـفـه مـجـر سـمـاء
قـد رق حـتـى ظـن قـرصـاً مـفـرغـاً
مـن فـضـة فـي بـردة خـضـراء
وغـدت تحـف بـه الـغـصـون كـأنـهـا
هـدب تحـف بمـقـلـة زرقـاء
والـريـح تـعـبـث بـالـغـصـون وقـد جـرى
ذهـب الأصـيـل عـلـى لجـين المـاء

لا تسمع الأذن في رحابها إلاّ همس الجداول، أو وشوشة السواقي، أو شقشقة العصافير وتغريد البلابل وقصائد الحب العذري المختبئ بين الكهوف والخمائل والوديان في هذه البلاد الساحرة كان المعتمد بن عباد سلطاناً لا يشق له غبار، ومقاتلاً صنديداً قلما يفارق صهوة جواده وهو ينتقل من نصر إلى نصر وبينما كان يستجم ذات يوم مع زوجته يمتعان الطرف بما حبا الله به تلك البلاد من روعة وجمال استوقفها منظر جميل، فتيات في عمر الأزهار يعبثن بالطين في فرح ومرح وبهجة في أحد بساتين الأندلس الممتدة على طول الطريق، فاستأذنت المعتمد في أن يكون لها نصيب من اللهو بالطين واللعب به كما تفعل الفتيات الصغيرات فاستمهلها المعتمد ووعدها بأن يحقق لها هذه الرغبة في وقت قريب وبالطريقة التي يراها أمر المعتمد بعد ذلك بإحضار كميات كبيرة من أطياب الهند المشهورة عبر العصور من عود وكافور ومن كل ما كان معروفاً من هذه الأنواع ثم أمر بطحنها طحناً دقيقاً . وعندما طحنت كما أراد أصدر أوامره بأن تعجن بماء الورد وماء الزهر وبالمسك والعنبر، بعد أن تم عجنها وأصبح الطين الفريد من نوعه يملأ بهو القصر توجه المعتمد إلى زوجته وأخبرها بأن الطين في بهو القصر في شوق إلى لهوها وعبثها، خرجت زوجته لترى طيناً فريداً من نوعه لم ير الناس مثله من قبل، فأخذت زوجة المعتمد تعبث الطين مع بناتها وصديقاتها حتى أفرغن كل ما كان في نفوسهن من شغف إلى العبث بالطين وظن

المعتمد بذلك أنه ملأ كل مكان في نفسها وعقلها وقلبها بما فعله وما هي إلاّ أيام حتى حدث سوء تفاهم بين المعتمد وزوجته أدى إلى شيء من الأخذ والرد نتيجة لاختلاف وجهات النظر فما كان من زوجته إلاّ أن صفعته بالكلمة المعهودة التي تترد على ألسنة كثير من النساء (ما رأيت منك خيراً قط). فناداها المعتمد بكل سكينة وهدوء قائلاً (ولا يوم الطين) فصمتت وانصرفت في خجل.

لكن الدهر لم يبق ضاحكاً للمعتمد وسرعان ما قلب له ظهر المجن حيث كان في تلك الفترة يبسط سلطانه على إشبيلية وقرطبة وبلنسية ومرسية إلاّ أنه أحس باستفحال خطر الفونس السادس ونيته المبيتة للاستيلاء على بلاد الأندلس فلم يجد أمامه من يستعين به على قتال الفونس الا المرابطين مما دفعه إلى الاستنجاد بهم فلبى قائد المرابطين في المغرب العربي يوسف بن تاشفين الدعوة وتوجه بجيشه إلى الأندلس حيث وقف إلى جانب المعتمد وجيشه ليخوضا جنباً إلى جنب ملحمة من ملاحم البطولات الإسلامية سطرت واحداً من أروع الانتصارات الإسلامية في التاريخ وسميت تلك المعركة معركة الزلاقة وكانت في عام ١٠٨٦م وقد أخرت سقوط الأندلس في يد الأسبان زهاء أربعة قرون ويذكر المؤرخون بأن المرابطين والأندلسيين كان يمكنهم أن يجتثوا أي أمل في نفوس الاسبان بإخراج المسلمين من الأندلس لو أنهم تابعوا فلول الجيوش الاسبانية المنهزمة يومها إلى المواقع التي فرت إليها. إلاّ أن ذلك لم يحصل كما أن الوفاق لم يدم طويلاً بين المعتمد ويوسف ابن تاشفين وبدأ الاختلاف في وجهات النظر واتسعت هوة الخلاف إلى أن ألقى يوسف بن تاشفين القبض على المعتمد وأودعه السجن.

وهكذا أصبح المعتمد في سجنه نديم الأصفاد والقيود بعد أن كان بلاطه مرتعاً للشعراء وموئلاً لعشاق الأدب ورجال العلم والفكر يفيض كرمه في كل اتجاه ويغمر بعطائه القاصي والداني أما في سجنه في أغمات فكأنه إذا تلفت لا يجد إلاّ القضبان ترمقه بعيون القسوة التي تحول بينه وبين أخبار الأهل والوطن إلاّ ما تسلل منها رغم أنف تلك القضبان من مصارع الأولاد وتشتت الجيش وتنكر الأصدقاء وضياع البلاد والعباد فكان لا يجد أمامه إلاّ الشعر يبثه أشجانه ويضمنه فصول المآسي والمحن التي تعصف به وتنهشه بأنيابها لعله ينقل إلى الأجيال شيئاً مما حل به ومما ورد في كتب الأدب من أخباره أنه بعد أن ودع رمضان واستقبل هلال شوال وأشرقت على الكون شمس عيد الفطر فوجئ ببناته يقفن أمام القضبان في سجنه وقفة نكأت جراحه وأضرمت نيران المآسي والأحزان في قلبه فكتب يقول:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً
فساءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة
يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة
أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية
كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
أفطرت في العيد لا عادت مساءته
فكان فطرك للأكبار تفطير
قد كان دهرك ان تأمره ممتثلا
فردك الدهر منهياً ومأمورا
من بات بعدك في عيش يسر به
فإنما بات في الأحلام مغرورا

وهكذا كانت النهاية المأساوية للصراع الدامي بين يوسف ابن تاشفين والمعتمد بن عباد الذي قضى نحبه عام ١٠٩٥م في سجنه بأغمات والتي كان من نتائجها الأدهى والأمر على الصعيد العام ونتائج أمثالها من ألوان الصراعات الأندلسية ضياع الفردوس المفقود وسقوط الأندلس في يد الأسبان عام ١٤٩٢م بعد أن سطعت شمس الإسلام في رحابها ثمانية قرون.

* مركز الدراسات والبحوث - أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية